الدور الحضاري

وانعكاساته على الشعر

بقلم الدكتورة :

أنيسة أحمد خليل المنصور

لعبت منطقة البحرين دوراً حضارياً مميزاً على امتداد العصور القديمة، فقد كانت أحد مراكز التحضر الهامة في الجزيرة العربية، وساعدها على ذلك عدة عوامل أهمها :

الموقع

يحتل إقليم البحرين الجزء الشرقي من الجزيرة العربية ويمتد من البصرة شمالاً إلى عمان جنوباً، ويتاخم أرض اليمامة التي كانت تشكل مع البحرين إقليم العروض وتتصل المنطقة ببحار هامة فهي تقع على الخليج العربي وما يتصل به من امتدادات بحرية كالمحيط الهندي الذي يتصل بعوالم متحضرة .

ولقد أضفى عليها هذا الموقع تميزاً وأهمية، فهي تقع في منتصف الطريق المؤدي إلى بلدان آسيا من جهة وبلاد ما بين النهرين وسوريا والشرق الأدنى من جهة أخرى . وكانت تمثل شرياناً هاماً ومحطة للاتصال والتبادل التجاري بين بلدان العالم القديم . فهي المنفذ البحري للجزيرة العربية من جهة الشرق، وحلقة الاتصال البري بين بعض مناطق الجزيرة والعراق موطن حضارة بابل وآشور التي تجاور الشام

منطقة البحرين

في العصر الجاهلي



الوثيقة - ٥٩

وبلدان البحر المتوسط من جهة أخرى . كما أن خطوط الملاحة التجارية جعلتها على اتصال وثيق بحضارة الهند والصين وما جاورها[1] .

وقد أهلها هذا الموقع لأن تلعب دوراً هاماً في حركة التجارة العالمية، وأن تمارس دوراً في التفاعل الحضاري بين دول العالم القديم، منذ فترة تاريخية مبكرة .

الحياة الاقتصادية

عاشت منطقة البحرين حياة اقتصادية رخيَّة وشكلت عناصر الاقتصاد فيها أهم المرتكزات الحضارية حيث مارس أهلها ألواناً شتى من النشاط الاقتصادي، تمثل في :

التجارة : وضع لبناتها الأساسية أبناء المنطقة من الفينيقيين . وقد ازدهرت تجارتها منذ أقدم الأزمنة وشكلت عنصراً حيوياً في الحياة الاقتصادية وزخر الساحل العربي بالموانئ التي تغص بأنواع التجارات . ويذكر أن البحرين في عام ٣٦٠٠ ق. م كانت تتوسط الطرق البحرية التي تسير عبرها تجارة السومريين . وخلال الألف الثاني ق. م أصبحت دلمون من أهم مراكز الخليج التجارية، وكونت بذلك حلقة الوصل بين بلاد الرافدين ووادي السند[٢] .

وتشير الدلائل إلى أن التبادل التجاري مع "أور" كان مستمراً، وأن بلاد الرافدين كانت تستورد من البحرين الذهب والحجارة والأخشاب والنحاس ومواد نفيسة مثل اللؤلؤ والأحجار الكريمة[٣] .

وتمثل الهند الجهة التجارية الرئيسية مع المنطقة . ويذكر أن سكان دلمون تاجروا في ٤٢ نوعاً من السلع كالمنتجات الخشبية والحيوانية والمنتجات البحرية والأحجار الكريمة والمعادن والمحاصيل الزراعية[٤] .

وتشير الدراسات أن أهل جرها على ساحل الاحساء كانوا من أنشط الناس في التجارة، وأنهم تاجروا في البر والبحر . وكانوا قوماً مسالمين، ولهذا فإنه لما أراد أنطيوخس الثالث (ملك السلوقيين) الاستيلاء على بلادهم سألوه الصلح وألا يقضي على ما أعطتهم الآلهة من سلم وحرية أزليين . ويظهر

أنهم بلغوا درجة عالية من الثراء حتى اصطبغت أخبارهم بصبغة أسطورية . ويذكر أنهم زينوا منازلهم بالعاج والفضة والحجارة الكريمة ، وجملوا سقوف أبنيتهم وأبواب غرفهم بالذهب والأحجار النفيسة(٥) .

وكانت دارين من الموانئ الشهيرة التي عن طريقها تصل بضائع الهند إلى مختلف أنحاء الجزيرة كالأقمشة وأنواع الطيب والأفاويه والأسلحة وغيرها(٦) ، وفي العصر الجاهلي احتفظت المنطقة بمكانتها التجارية ، ويذكر أن سادات اليمامة والبحرين كانوا من الأثرياء الثقال . وأنهم كانوا يحملون تجاراتهم من أقمشة وتجارة بحرية إلى مكة(٧) وتشير المصادر إلى ابن يامن كان أحد أغنياء المنطقة الذين نالوا صيتاً بعيداً(٨) .

واشتهرت بعض مناطقها بألوان من التجارة نسبت إليها وظهر صداها في التراث الأدبي . وقديماً قيل "كجالب التمر إلى هجر" للدلالة على غناها بهذا المحصول . واكتسبت دارين سمعة في تجارة الطيب وازَتْ شهرة هجر بالتمر وشهرة الخط بالرماح الخطية .

وإذا كان للبحر دوره الخطير في تجارة المنطقة فقد برز أيضاً كعنصر حيوي في إنتاج اللؤلؤ وهو أحد الموارد الاقتصادية التي ارتبط اسمها بالبحرين . وكانت مغاصاته تمتد من الكويت شمالاً حتى مضيق هرمز جنوباً وأهمها ما وقع حول جزر البحرين وشكلت مياه الخليج بيئة صالحة لإنتاجه(٩) وكان اللؤلؤ من السلع الرائجة والمطلوبة ، ولكنه شكَّل في الوقت نفسه إغراء مادياً دفع الطامعين للاستيلاء على المنطقة والسيطرة على تجارته .

وقد صاغت صناعة الغوص حياة الناس وفرضت نفسها على الحياة الأدبية خاصة في الشعر وأشار إليها بعض شعراء الجاهلية كالأعشى والمسيب بن علس والمخبَّل السعدي فوصفوا أسلوب صيد اللؤلؤ، وأدواته ، والمعاناة التي يتعرض لها الغواص(١٠) كما كان هذا المنتوج من أهم عناصر الترف التي جُعلت حلية تتزين بها نساء ذلك العصر .

ومن ناحية أخرى فإن النشاط البحري الواسع أدى إلى انتشار وإتقان صناعة السفن وأشار طرفة بن العبد إلى بعض أنواع السفن الرائجة فذكر

"العَدَوْلِيَّـة" ويبـدو أنـها سـفينة كبـيرة . فعَدَوْلَى فـي الاصطـلاح اللغـوي يعنـي الشـجرة القديمـة الطويلـة . ويرجـح صاحب القاموس المحيط أنـه ربمـا كـان اسـم رجـل يتخـذ السـفن أو اسماً لقـوم كـانوا يـنزلون هجـر، وربمـا عَنَـتْ الملاح[١١] .

لقد شكلت التجارة أحد المرتكزات الهامـة التـي دعمـت الـدور الحضـاري للمنطقة وهيأت فرصة التفاعل مع الأمـم المتحضـرة ولعـب البحـر دوراً هامـاً فـي النشاط الاقتصادي، حيث شكل عنصراً حيوياً استثمرت مياهـه لنقـل التجـارة، واستغلت ثرواته من أسماك ولآلئ لزيادة الرخاء .

الزراعة :

للبحرين تاريخ زراعي عريق، فقـد تميزت بخصوبة أراضيها ووفـرة مياهـها بفضل ما حباها به الله من عيون متدفقة شابهت الأنهار في جريانها، مما شـكل قاعدة صلبة لتدعيم النشاط الزراعي .

يصف البكري بلاد البحرين فيقول: "هي بـلاد سـهلة كثيرة الأنـهار مـن العيون عذبة الماء، ينبطـون المـاء علـى القامة والقامتين، والحنـاء والقطـن علـى شطوط أنـهارها بمنزلـة السوسـن، وهـي كثيرة النخل والفواكه، ولهم ثمـر يسـمى المانجي" .

ويعدد مـا تنتجـه جزيـرة أوال مـن محاصيل فيذكر أنها كثيرة النخل والموز والجـوز والأتـرج والـزرع والأشـجار والأنـهار[١٢] ومـن القدمـاء مـن يرجـح تسميتها بـالبحرين لوجـود بحـيرة علـى باب الاحساء بينها وبيـن البحـر عشـرة فراسخ[١٣] .

وكـانت النخلـة تشـكل القـاعدة الصلبة في النشاط الزراعي وقـد تعـددت أصناف البلح واختلفت ألوانـه وصـاغت النخلة حياة الناس، واعتمد عليها سكان المنطقـة كمـادة غذائيـة رئيسـية، كمـا زودتهم بالكثير مـن احتياجاتـهم، فمـن ليفها صنعوا الحبال، ومن سعفها عملـوا الكثير من أدواتهم، واستمدوا مـن بعـض أجزائها وقودهـم . كمـا كـان التمـر مـن صادراتهم التجارية الهامة، بسبب كثـرة إنتاجـه، وجـودة بعـض أصنافـه حتـى ضرب به المثل كما أشرنا .

وعلى الصعيد الأدبي مثّلت البيئة الزراعية ببساتينها ونخيلها وأشجارها عنصراً بارزاً في شعر البحرين .

ترتب على نشاط الحياة الاقتصادية قيام مراكز تجارية عدَّ بعضها من أسواق العرب المعدودة، وأشهرها : **سوق هجر** وتقام في ربيع الآخر، **وسوق المشقَّر** في جمادى الثانية وكان يقصدها أحياء من العرب من مختلف أنحاء الجزيرة العربية، كما يقصدها تجار فارس ويشرف عليها بنو تميم . ويذكر المرزوقي أنها أرض معجبة لا يراها أحد فيصبر عنها وكان لا يقدمها لطيمة إلا تخلف بها منهم ناس فمن هناك صارت بهجر أحياء عديدة من العرب وغيرهم . ويذكر الدارسون سوق الزارة والجرعاء ودارين ذات الشهرة البعيدة بتجارة العطور وبالقرب من هذه الأسواق تقع أسواق اليمامة وصحار ودبا وكان يتولى التعشير فيها سادات القبائل[١٤] وشكلت المكوس والضرائب مبالغ ضخمة .

لقد كان الرخاء الاقتصادي مؤشراً له دلالته على ما بلغته البحرين من رقي . كما كان له أثره في تدعيم الدور الحضاري للمنطقة .

الحياة الاجتماعية

من أبرز المظاهر الاجتماعية التي أدت إلى وقوع تقارب بين أجزاء المنطقة من الناحية الأدبية انتماء أغلب سكانها إلى قبيلة ربيعة . الذين هاجروا إليها في أزمنة متفاوتة . فهاجرت تنوخ إلى البحرين، ثم لحقتها عبد القيس فدفعتها عنها . وانتشرت الأخيرة في أجزاء اليمامة . وعندما جاء الإسلام كانت عبد القيس تنتشر في معظم أرجاء البحرين خاصة في المناطق الساحلية . وسكنت معها قبيلة بكر بن وائل التي امتدت مساكنها إلى اليمامة أيضاً كما شاركتها في العيش بعض عشائر تميم وقبائل من الأزد[١٥] .

ساعدت الطبيعة وألوان النشاط البشري على تحول الكثير من السكان إلى مجتمعات متحضرة أو شبه متحضرة . فقد عملوا في الزراعة . وتطلبت هذه المهنة عناية بالزرع، ورعاية للمحصول أدت في النهاية إلى الاستقرار الذي يعدّ الخطوة الأساسية في طريق التحضر وقد هيأ لهم ذلك فرصة التأمل في خواص البيئة وعناصرها وتطويرها، مما أكسبهم خبرة بالحياة نفسها .

كما أتاح لهم احتكاكهم بعناصر متحضرة عربية وغير عربية فرصة التعرف على أساليب في الحياة جديدة، ووسّع رؤاهم، وعمّق تجاربهم . فبحكم قربهم من فارس وقيام روابط سياسية وتجارية معهم تهيأت لهم فرصة التعرف على مظاهر حضارتهم، وما شاع عندهم من معارف ومعتقدات، وتفتحت عيونهم على بيئات جديدة، وأساليب في العيش متعددة هذا مع بقاء الكثير منهم محافظاً على نسق حياته البدوية .

ومن المظاهر الحضارية قيام المدن، وتطالعنا أسماء عديدة ذكر البكري سبعاً منها كالقطيط والعقير وأوال(١٦) وتحول بعضها إلى موانئ، كما انتشرت فيها المنشآت العمرانية ويشير اللغويون إلى وقوع ارتباط بين لفظتي "هجر" والبناء فيسمي العرب البنّاء "هجرياً" وفي ذلك دلالة على التصاق أهل هجر بهذا العنصر الحضاري(١٧) .

الحياة السياسية

(دور المناذرة في المنطقة)

مع غلبة النظام القبلي عرفت المنطقة لوناً من التنظيم الحكومي المركزي، وضرباً من التوحد بسبب خضوعها للدولة الفارسية . التي كانت تحكمها حكماً مباشراً فيه الكثير من العسف والقمع . وحين تم لها بسط سيادتها على مملكة الحيرة جعلت منطقة البحرين تابعة لملوك المناذرة واستطاع هؤلاء مد نفوذهم إلى نجد .

ولعب المناذرة دوراً هاماً ومزدوجاً في حياة المنطقة فعلى صعيد الحياة السياسية ساد العلاقة لون من الصراع المكشوف بينهم وبين أهل البحرين . وكانت الحيرة قد أنشأت جيشاً ضخماً منظماً يتكون من خمس فرق قوية : أشهرها على الإطلاق كتيبة "دوسر" التي ضرب بها المثل في العنف حتى قيل "ابطش من دوسر"(١٨) . ووصل بعض ملوكها إلى درجة عالية من الاستبداد والقسوة والغرور، كعمرو بن هند، الذي اشتط في أخذ المكوس من أهل البحرين . وقد ولّد ذلك نفوراً منه عندهم . ومما أجج الصراع تأبّي قبائل البحرين على سلطة الحكومة المركزية، ورفضهم الانصياع لها، وسعيهم للتخلص من نفوذها .

ويفيض شعر المنطقة بوصف جبروتهم وطغيانهم . ويشير يزيد بن

خذاق الشنّي إلى الأسباب التي دعته إلى هجاء النعمان بن المنذر فيخاطبه ذامّاً متوعداً[١٩] : (كامل)

نُعمانُ إنك خائن خَدِعٌ
يُخفي ضميرك غير ما تُبدي
فإذا بدا لك نحتُ أثلتِنا
فعليكَها إن كنتَ ذا حَرْدِ
يأبى لنا أنّا ذوو أنَفٍ
وأصولنا من محتِد المجدِ
إنْ تغزُ بالخرْقاءِ أسرتَنا
تلقَ الكتائبَ دوننا تَرْدي

ومن شعراء البحرين الذين هجوا عمرو بن هند طرفة بن العبد، والمتلمِّس الذي أقذع في هجائه وآخرون[٢٠] على أن لهذه التبعية وجهاً إيجابياً تمثل في تقريب المناذرة مسافة الخلاف بين القبائل، وإيجاد ضرب من التوحد بينهم . كما أن الجيش الضخم الذي أنشأوه أدى إلى ازدهار الحياة الاقتصادية . فكان من مهامه حماية اللطائم وهي إبل التجارة التي تحمل الطيوب .

كما شكل المناذرة مرجعية للقبائل يراجعونهم في شئونهم ويحكمونهم في خلافاتهم، وقد قرّب كثير من ملوكهم أشراف العرب، ومنحوهم رعايتهم. وخصوا السادة بعطاياهم السنية، كما أسندوا إليهم بعض المهام السياسية والمالية[٢١] .

على أن أبرز الوجوه الإيجابية للمناذرة هو الدور الذي قاموا به إزاء الأدب، مما ترتب عليه قيام نهضة شعرية، شاركوا فيها مشاركة فعالة . فقد أحبوا الشعر وتذوقوه، وساهم بعضهم في قرضه . وكانت قصورهم موضع إشعاع للشعر واستقطاب للشعراء فاستقبلوهم واستمعوا لإنشادهم ومنحوهم الجوائز[٢٢] .

ويشير الرواة إلى دورهم في المحافظة عليه فيذكرون أن النعمان بن المنذر أمر بأن تنسخ له أشعار العرب في الكراريس وأنه وضعها في أسفل قصره الأبيض . ويقال إنه كان عند أبنائه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته[٢٣] . وقد أصبحت الحيرة في أيام عمرو بن هند موئل الشعراء . ولأكثرهم أخبار مع هذا الملك، فكانوا يتنافسون في مجلسه وينقدون بعضهم البعض[٢٤] .

ويعدُّ طرفة بن العبد وخاله المتلمس من أبرز شعراء هذا المجلس، ومع ذلك فهما ممن غدر بهم هذا الملك .

ويمكن القول أن الخطاب الشعري الذي علا في تلك الدوائر دار جزء منه حول مديح أولئك الملوك، كما اتجه قسم منه إلى هجائهم ورثائهم . وقد غذت تلك البيئة المترفة وما شاع فيها من مظاهر البذخ خيال الشعراء، وأمدتهم بمضامين عديدة . ومن ثم أصبح المناذرة عنصراً مؤثراً في حياة المنطقة سياسيا وحضارياً وأدبياً .

الحياة الفكرية

شاعت في بيئة البحرين كما هو الشأن في البيئات العربية الكثير من المعطيات المعرفية البسيطة، ومبادئ العلوم الفطرية التي أدركها العرب بواسطة التجربة أو صدق الحس وقوة النظر، أو عن طريق التأثر بغيرهم من الشعوب . فكانت لهم معارف في علم الفلك والتداوي . وباعٌ طويل في علم الفراسة والقيافة، ومعرفة بالأنساب والأخبار وما إلى ذلك .

وقد هيأ عنصر التجارة واحتكاك سكان البحرين بالعديد من الأمم المتحضرة كالروم والفرس والهنود فرصة التعرف على الكثير من الاتجاهات والأفكار، فعرفوا مختلف الديانات من يهودية ومسيحية ومجوسية . التي كانت تتصارع فيها المذاهب والآراء مما رقَّى مداركهم وأثرى رصيدهم المعرفي فأكسبهم ذلك مرونة عقلية، ومقدرة على النظر في مختلف التوجهات الفكرية . وزاد في تعميق رؤاهم وصقل مشاعرهم ألوان الصراع الذي خاضوه نتيجة شيوع النظام القبلي، وخضوعهم لسلطة المناذرة المستبدة .

وكان لهذه العوامل أثرها في إخصاب حركة الشعر وإثراء الرصيد الأدبي . وقد شكلت بيئة البحرين بكل ما فيها من خصائص تربة صالحة وفضاء مواتٍ نبتت فيه بذور الشعر وترعرعت . فقد غذَّت الظروف السابقة مواهب الشعراء وصقلتها، وأنضجت تجاربهم منذ فترة مبكرة وأذنت بمولد الشعر فيها قبل غيرها . هذا فضلاً عن الميل الفطري عند العرب إلى بلاغة الكلام وفصاحته .

فكان من الطبيعي أن يكون للبحرين دور نشط، ومساهمة إيجابية في بناء الشعر العربي وإرساء قواعده .

أسبقية الشعر في منطقة البحرين

يشير رواة الأدب إلى أسبقية هذه المنطقة في الشعر فيقول ابن سلام : "كان شعراء الجاهلية في ربيعة أولهم المهلهل والمرقشان وسعد بن مالك وطرفة بن العبد وعمرو بن قميئة ثم تحول (الشعر) في قيس . ."[٢٥] ويدل قوله "ثم تحول" على هذا الترتيب الزمني وتابعه في مقولته تلك رواة الأدب الآخرون[٢٦] .

وقد شاع الشعر في جميع القبائل المنحدرة من ربيعة وأكثرهم من قبيلة بكر بن وائل .ومن شعرائها عمرو بن قميئة والمرقشان وطرفة . . ومن تغْلِب مهلهل وعمرو بن كلثوم . . ومن عبد القيس المثقب والممزق والمفضل النكري ويزيد بن خذاق . . . أما المتلمس فهو نزيل تلك المنطقة . . .[٢٧] .

ويذهب رواة الأدب إلى أن عمرو بن قميئة أول من قال الشعر، وقصَّد القصيد، وأنه كان معاصراً للمهلهل بن ربيعة، وصحب امرأ القيس حين ذهب إلى بلاد الروم يستمدّهم على بني أسد[٢٨] .

ونحن وإن لم نكن على يقين من صحة الروايات والمقولات المذكورة إلا أننا نعتقد أن لها دلالتها التي تشير إلى دور **البحرين** الفعال في وضع اللبنات الأولى للشعر العربي، ومساهمتها الإيجابية في تأسيس قواعده .

إن القول بأسبقية المنطقة في قرض الشعر يستتبعه الاعتقاد بريادتها في الكثير من مضامينه . ويذكر المرزباني أن عمرو بن قميئة أول من بكى الشباب[٢٩]، فوضع بذلك ركائز مضمون شعري أصيل استثمره من أتى بعده من الشعراء وتوسعوا فيه . كما أنه أول من نطق بوصف الخيال . وعلّق أبو هلال العسكري على أبياته بأنها أبلغ ما قيل في وصف بخل المحبوب، ومنها أخذ المحدثون معانيهم . كما نوّه بها الشريف المرتضي[٣٠] . ونسب لابن قميئة نفسه أول تشبيه للهلال بقلامة الظفر . ولعل تلك الابتكارات الشعرية هي التي حدت بالنقاد الأقدمين إلى تصنيفه ضمن فحول الشعراء . وقد قيل أن للفحل منهم مزية كمزية الفحل علي الحقاق[٣١] .

وللمثقَّب العبدي معان في وصف الناقة لم يسبق إليها . وبلغ من إعجاب أبي عمرو بن العلاء به - وهو من *مشاهير رواة الأدب* - أن قال : "لو كان الشعر مثلها - *أي القصيدة التي منها وصف الناقة* - لوجب على الناس أن يتعلموه" وقيل عن وصفه للغبار إنه لم يوصف بأحسن من لفظه قط[٣٢] .

وليزيد بن خذاق الشنِّي سبْقٌ في تناول موضوع الزهد، فهو أول من ذم الدنيا[٣٣] .

ولا نعتقد بعد الذي ذكرناه أننا بحاجة إلى المزيد من الأدلة لبيان دور شرق الجزيرة العربية في الشعر فمساهمتها فيه واضحة، ودورها في ابتكار معانيه بارز . ولعمري فإنه لمن فضول القول أن تلك التلوينات الفكرية والإسهامات الأدبية هي أهم مظاهر الحضارة الإنسانية والرقي العقلي .

العناصر الحضارية وانعكاساتها في شعر البحرين

فرضت البيئة الحضرية التي عاشتها البحرين نفسها على الشعر وقد استوعبت عناصر الحضارة - التي تعامل معها البحرينيون - العديد من جوانب حياتهم، وتغلغلت في نفوسهم في تفاعل واضح، متسربة إلى فنهم الشعري، مادَّةً إياهم بمعين لا ينضب من المعاني والصور . وقد تجلت في بعدين :

مادي ونقصد به ما اتخذ صوراً محسوسة، فقد شكل شعرهم فضاءً رحباً تجسدت فيه كل إيقاعات بيئتهم وحياتهم بتنويعاتها المادية المختلفة .

أما البعد الآخر فهو البعد المعنوي ونقصد به ما انعكس في شعرهم من رقي عقلي ووجداني .

عناصر الحضارة المادية

تلوح في شعر البحرين ضروب شتى من مظاهر الحياة المادية . ويمكن تصنيفها إلى صنفين : عناصر تختص بالبيئة الطبيعية التي تعانق في أحضانها البر والبحر وتآلفت ظواهرهما . وعناصر تختص بحياة الإنسان ومستلزماته وما كان يشيع في حياته من إيقاعات حضارية كالمواد التي يقتنيها، وتلك التي عمد بواسطتها إلى زخرفة حياته .

عناصر البيئة الطبيعية ذات الطابع الحضري

أ - الحياة النباتية

تشكل الزراعة عنصراً أصيلاً في نشاط البحرين . صاغ حياة أبنائها . ومثل ركيزة هامة من ركائز الاستقرار والتحضر، وتتمتع البحرين بغطاء نباتي ظليل، فاض الشعراء في وصفه وما يتضمنه من زروع ونباتات، وما ينجرّ عنه

مـن ظـلال وأفيـاء، وتكـثر فـي شـعرهم صورة الخمائل الملتفة، وما يتدلى منها من فـروع وأوراق، مثلـت مـلاذاً أغـرى الغزلان بالالتجاء إليه للاستمتاع بأفيائه ورعي أغصانـه فـهاهو طرفـة بـن العبـد يشبّه صاحبته بتلك الغزالة التي رعـت فـي ظـلال تلـك الجنـة فاطمـأنت واكتنزت : (طويل)

خَـذُولٍ تراعي رَبْرَبـاً بخميـلة

تناولُ أطرافَ البرير وترتدي[٣٤]

وتتكرر نفس الصورة عنـد المثقّب العبدي فيشبه نسـاء القبيلـة الراحـلات بالغزلان التي رعت في تلك الريـاض : (وافر)[٣٥]

كغزلانٍ خذلْـن بذات ضالٍ

تنوشُ الدانياتِ من الغصون

وتشف لفظة "خذلـن" بمـا تعنيـه مـن تخلـف عـن القطيـع بـإغراء تلـك الروضة وشدة جذبها . وينم كثرة تداول هـذا المعنـى عنـد الشعراء علـى شـيوع الرياض في المنطقة . ويعـرض الشـعراء صورة النبات وقد انتشـر وتكـاثف فسـد الخصـاص؛ يقـول المرقّـش الأكـبر فـي وصف أطلال الحبيبة وما نبت فيها من زروع بعد الرحيل : (منسرح)

أضحـت خـلاءً نبتها ثَئِـدٌ

نَـوَّرَ فيها زهْـوُه فأعتـم[٣٦]

وتوحي لفظة "**الزهو**" بتعدد الألوان بين أحمر وأبيض وأصفر، وتفيـض لفظـة "**فأعتم**" بمعنى الكثرة والكثافة .

وتلـوح فـي شـعر البحريـن ضـروب شتى من النباتات ومعظمها ينتمي للبيئـة الصحراوية ومن النباتات التـي كـان لـها ذكر في شعرهم "الحربث" و"الينم" وهمـا بقلتان تنبتان في السهول، فيقول المرقش الأكبر في وصف الخصب الـذي نعـم بـه الثور الوحشي : (سريع)[٣٧]

بات بغيْبٍ مُعشِبٍ نبتُهُ

مُختـَلطٌ حُرْبُثُـه باليَنَمْ

ويوحي الوصف بكثرة النبت وشـدة الخضـرة . ويزخـر شـعر طرفـة بصنـوف النبـات الشـائع فـي تلـك البيئـة فيذكـر الأقحـوان، وأفنـان الزهـر، والحرمـل' والأرطـي' والفقـع[٣٨] . كمـا ذكرالعشـر والخـروع وهمـا نبتتـان صحراويتـان شبّه بهما امتلاء أطراف صاحبته : (طويل)

كأن البُريـن والدماليـج عُلِّقَتْ

على عُشَر أو خِرْوَعٍ لم يُخَضَّدِ[٣٩]

أمـا الأعشـى فعـلاوة علـى ذكـر النباتات الصحراوية كـالأقحوان والبـان،

تبرز عنده ضروب شتى من الرياحين التي تبدو كأثر من آثار اختلاطه ببيئات فارسية في العراق . يصف مجلس لهوه، وما كان يطالعه فيه من ورود فيقول : (متقارب)

وشاهِدُنا الورد والياسَميـــــــ
ـــنُ والمسمعاتُ بِقُصَّابها[٤٠]

كما يعتني بتعديد ما يحيط به في تلك المجالس من زهور ورياحين عناية بارزة فيذكر البنفسج والآس والخيري والسوسن والنرجس، هذا علاوة على ما يذكره من أسماء الزهور الفارسية[٤١] .

على أن أكثر منتوج زراعي برز في شعر البحرين هو النخلة . ولا غرو فقد شكلت محوراً هاماً في إيقاع الحياة اليومية، وكانت أبرز عنصر في المنظومة الزراعية للمنطقة بأسرها . ولقد تعززت مكانة النخلة في نفوس أبناء البحرين، وزودتهم بالعديد من احتياجاتهم، وتجلت أهميتها من خلال الطروحات التي تناولتها . فقد اعتنى الشعراء بإظهار العديد من سماتها وتحدثوا عن كثرتها وسعة انتشارها . يقول الأعشى مشيراً إلى ثراء الخط بهذا المنتوج فيقول في معرض العتاب : (طويل)

فإن تمنعوا منا المشقَّرَ والصَّفا
فإناً وجدنا الخطَّ جمّاً نخيلُها[٤٢]

وأشار امرؤ القيس إلى غنى الخط بالتمر، ووصف الأحمال الثقيلة التي يخرج بها الممتار من إحدى قرى البحرين وهي جواثي . وقد أكد ذلك ياقوت الحموي أيضاً[٤٣] .

وتطالعنا العديد من أسماء النخيل التي اكتسبت صيتاً وشهرة كنخيل محلّم . يقول بشر ابن أبي خازم متخذاً منها أداة فنية فشبَّه بها هوادج النساء : (وافر)

كأن حُمُولَهُمْ لمَّا استقلّوا
نخيلُ محلّمٍ فيها انحناءٌ[٤٤]

وتتضمن الصورة الواصفة شدة الطول الذي أدى إلى التقوس . وأشار في موضع آخر إلى صفة أخرى لهذا النخل وهي النضارة والنضوج وما يوحى به من بهاء : (وافر)

كأن حُمُولَهُمْ لمَّا استقلّوا
نخيلُ محلّمٍ فيها ينُوعُ[٤٥]

ولشهرة هذه النخيل أشار إليها شعراء آخرون . يقول لبيد في وصفها : (كامل)

فكأن ظُعْنَ الحيِّ لما أشرفتْ
في الآلِ وارتفعتْ بهنَّ حُزومُ
نَخْلٌ كوارعُ في خليجِ محَلِّمٍ
حَمَلَتْ فمنها مُوْقَرٌ مكمومُ[٤٦]

والصورة توحي بالضخامة والامتلاء . كما تشير إلى السبب وهو كثرة المياه . ونافست قرية "مَلْهَم" باليمامة قرية مُحَلِّم فأشار الشعراء إلى كثرة نخلها وجودة عطائها[٤٧] .اشتهر أيضاً نخيل ابن يامن، ولعله أحد أثرياء البحرين، ونوه امرؤ القيس بنتاجه وذكر العديد من صفاته وبشكل مسهب، فيقول في وصف ظعائن الحبيبة مشيراً إلى ضخامتها وترفها وجمالها وتعدّد ألوانها : (طويل)

فشَبَّهْتُهُم في الآلِ لما تكمَّشوا
حدائقَ دَوْمٍ أو سفيناً مُقَيَّرا
أو المُكْرَعَاتِ من نخيل ابنِ يامِنٍ
دُوَيْنَ الصفا اللائي يلينَ المِشَقَّرَا
سَوامِقَ جبَّار أثِيثٍ فروعُهُ
وعَالَيْنَ قِنْواناً من البُسْرِ أحمرَا
حمتْهُ بنو الرَّبْداءِ مَنْ آلِ يامِنٍ
بأسيافهمْ حتى أُقِرّ وأوقِرا[٤٨]

ويوحي الشعر بحرص أصحابه على حراسته بنفاسته والضنّ به، وتبين بقية الأبيات الرعاية التي حظي بها ذلك النخل وتكليف عمال من الفرس بعملية صرمه، كما اعتنى الشاعر بتجسيد الناحية الجمالية فأشاد بحسنه وتألق ألوانه وزهوه الذي يأخذ بالألباب .

أمدّت النخلة الشعراء بالكثير من المضامين، فقد استقطبتهم فنظروا في صفاتها وما أحاط بها من تقاليد، فذكر المتلمس العادة التي جرت في غرس النخيل صفّاً واحداً، واستلهم منها صورة شبّه بها قومه في مجال الفخر بتكاتفهم وتراصّ صفوفهم فقال : (مجزوء الكامل)

وإذا فزعْتَ رأيْتَنَا
حلَقاً وعادِيَةً ورَزْدَقْ

و"رزدق" لفظ معرب تعني السطر من النخيل[٤٩] . وقد تطول النخلة وتمتد فتسمّى "السحوق" . ويصور عمرو بن قميئة ظعون النساء لضخامتها وارتفاعها بهذا النوع من النخل فيقول : (متقارب)

تخالُ حمولهُمُ في السَّرا
بِ لما تَواهَقْنَ سُحْقاً طِوالا[٥٠]

وقد أكد الشاعر بلفظة "طوالا" معنى الطول وزيادته، وذكروا من صفات بعض

النخيل كثرة العطاء وسميت "الخصاب" وقد استعار الأعشى هذه الصفة من عالم النخل وخلعها على ممدوحه ليدل على سخائه فقال : (متقارب)

هــو الواهبُ المائــة المصطَفا

ةَ كالنخلِ طافَ بها المجترِمْ

وكلُّ كُمَيْتٍ كجــذع الخِصــا

بِ يَرْدي على سَلِطاتٍ لُثُم(٥١)

نظر الشعراء إلى أجزاء النخلة فاقتبسوا منها صوراً كثيرة ضارعوا بـها موصوفاتهم . ونكتفي هنا بذكـر بعضـها فقد اتخذ المرقش الأصغر من "العسيب" وهو طـرف السعفة صورة ماثــل بـها فرسه : (طويل)

غدوْنا بصافٍ كالعسيبِ مُجلّلٍ

طويناهُ حيناً فهو شِزْبٌ ملوَّحُ(٥٢)

والصورة توحـي بـالضمور وسرعة الحركة . وذكروا العـذق وهـو العرجـون بما فيه من شماريخ فشبه بـه الأعشـى ذنب فرسه : (طويل)

كأن على إنسَائِها عِذْقُ خَصْبَةٍ

تدلّى من الكافور غيرُ مكمِم(٥٣)

والصورة توحي بكثرة الشَّعر الـذي غطّى الذيل . كما اتخذ طرفة من الجذع صورة ضارع بـها أعنـاق الخيـول حيـن تشرئب : (رمل)

وأنــافتْ بـهَــوادٍ تُلُــعٍ

كجُذُوعٍ شُذِّبَتْ عنها القِشِـرْ(٥٤)

ويجسـد التشـبيه طـول الأعنــاق وملاستها .

بـرز إلـى جــانب النخلــة شـجرة شبيهة بها انتشـرت فـي البحريـن وهـي شجرة الـدوم فذكرهـا الشعراء واتخذوهـا صـورة واصفـة شـبّهوا بــها مراكــب النسـاء(٥٥)، إلا أنـهـا لـم تكـن فـي ذيـوع النخلة .

وعلى أية حـال فقـد غـذّت النخلـة خيـال الشـعراء، فاتخذوهـا تعبـيراً فنيـاً وأداة واصفة جسّدوا من خلالـها معانيـهم وشحنوها بالدلالات . فكان لـها دور فـي إثراء الشعر شكلاً ومضموناً .

ب - الحياة البحرية

شكلت ظاهرة التقاء البر بالبحر في بيئة البحرين ثنائية صاغت حياة أبنائها .وإذا كـان الـبر بصحاريـه وأوديتــه هــو الفضاء الذي شكل الحيـاة البدويـة، فـإن البحر بأمواجه وخيراته هو الفضـاء الـذي

صاغ الحياة الحضرية، فكان أداة اتصال بأمم راقية، ووسيلة استحضار لمقتنيات حضارية، ومصدراً للانتعاش الاقتصادي.

وإذا كانت النخلة قد غدت عنصراً أخصب خيال الشعراء فإنهم اتكأوا بالمثل على البحر واستثمروا عناصره ليخلعوها على موصوفاتهم متأثرين بما شاهدوه في بيئتهم البحرية. وقد أدت السفن الدور الذي أدته الناقة في الصحراء. ويكشف الشعر الجاهلي عن وجود علاقة وثيقة بين جزر البحرين (أوال) والسفن. كما يكشف عن الشهرة التي تمتعت بها هذه الجزر في تلك الفترة.

يقول تميم بن أبي بن مقبل في تشبيه الظعائن بالسفن الراسية على ضفاف هذه الجزر: (الكامل)

مالَ الحُداةُ بها لِحائِشِ قريةٍ
فكأنها سُفُنٌ بِسِيف أوالِ(٥٦)

وربما دلت الصورة على ضخامة تلك السفن أو طولها. وينم بيت لعمرو بن قميئة عن صفة أخرى للسفن الراسية بسيف أوال وهي السرعة يقول: (خفيف)

هلْ ترى عِيْرَها تُجيزُ سِراعاً
كالعَدَوْليِّ رائحاً من أوالِ(٥٧)

وتبرز صورة السفن ومشاهد البحر عند شعراء البحرين حتى لا يكاد يخلو منها شعر شاعر. وهي قد ترد عنهم في صورتها العامة دون تحديد كقول المثقّب: (وافر)

وهن كذاك حين قطعن فَلْجاً
كأنَّ حُدُوجَهُنَّ على سفينِ
يشبهْن السفينَ وهن بُخْتٌ
عُراضاتُ الأباهِرِ والشُؤُونِ(٥٨)

ويدل البيت الثاني على أن غرض الشاعر من تشبيه الجِمال بالسفن بيان ضخامتها. ويكشف شعر البحرين عن أنواع السفن التي استعملوها. ويحتل طرفة بن العبد مكانة هامة بين شعراء البحرين في هذا الصدد. يقول في ظعون صاحبته غداة الفراق: (طويل)

كأنَّ حُدوجَ المالكيةِ غُدْوَةً
خلايا سفينٍ بالنَّواصِفِ من دَدِ
عَدَوْلِيَّةٌ أمْ من سفينِ ابنِ يامِنٍ
يجُورُ بها الملاَّحُ طوْراً ويهتدي(٥٩)

فهو يحدد ثلاثة ضروب من السفن: **الخلايا** وهي السفن العظيمة أو التي

يكون معها زورق[٦٠] . **وسفن ابن يامن** ورجحنا أنه كان من أثرياء البحرين أو ملاحيها وأنه ربما كان يمتلك أسطولاً من السفن وألمحنا إلى ارتباط اسمه بالنخيل . أما النوع الثالث فهو **العدولية** . ويذكر ابن منظور أن "عَدَوْلى" قرية بالبحرين وأن من دلالات اللفظة القِدم والضخامة . وتُظهر الأبيات طرفة ابناً أصيلاً لهذه المنطقة يعرف الكثير من أبعاد الحياة فيها . ويفسر بروز السفن "العدولية" في شعر المنطقة بشيوعها وكثرة استعمالها وربما ارتباط صناعتها بهذه المنطقة . ويشير "المثقّب" إلى ضرب آخر من السفن العظيمة والتي يسميها "القرواء" ويضعها في نفس الإطار السابق وهو التمثيل لضخامة الناقة : (وافر)

كأن الكُورَ والأنْساعَ منها

علَى قَرْواءَ ماهِرةٍ دهينِ[٦١]

فالقرواء هي السفينة الطويلة، وينم وصفها بـ"ماهرة" بإحكام صنعتها . فالماهر كما يقول ابن منظور الحاذق بكل عمل[٦٢] . ويشير البيت إلى سمة أخرى في مجال السفن وهو دهنها لحمايتها من التآكل . وواضح هذا الارتباط الشديد في وجدان الشعراء بين الناقة "سفينة الصحراء" وتلك المراكب التي صنعوها لامتطاء لجَّة البحار بحيث لا نجد السفينة إلا في إطار تلك الملابسة بين كل منهما بالأخرى، وقد أدى ذلك إلى تكرار المعاني والصور .

وقد تولد عن شدة التصاق شعراء البحرين بالسفينة ومعرفتهم بأجزائها أن ظهر الكثير من أدواتها ومتعلقاتها في شعرهم، هذا مع اقتران واضح بين أدواتها ومتعلقات الناقة بحيث غدتا وجهين لصورة واحدة . وقد سمي المرقش الأكبر السوط مجدافاً مستعيراً أداة تسيير السفينة للناقة : (سريع)

تعْدُو إذا حُرِّكَ مِجْدافُها

عَدْوَ رباعٍ مُفرَدٍ كالزُّلَمْ[٦٣]

كما عمد الشعراء إلى ذكر بعض أجزاء السفينة واستخدموها صوراً واصفةً خلعوها على الموصوف ذاته وهو الإبل . يقول "طرفة" في تصوير قوة السفينة وقدرتها على امتطاء أمواج البحار خالعاً الصورة على ركب الأحبة المسافرين : (طويل)

يشُقُّ حَبابَ الماءِ حيزُومُها بها

كما قسم التُّرْبَ المُفايلُ باليدِ[٦٤]

وينسج "المثقّب" على نفس المنوال فيقول واصفاً قوة السفينة وحدَّة صدرها (جُؤجُؤها) وقدرته على اختراق لجج البحار الممتدة في صورة استعارها للناقة : (وافر)

يشقُّ الماءَ جُؤجُؤُها وتعلو
غَوارِبَ كلِّ ذي حَدَبٍ بَطِينِ[٦٥]

ذكروا الملاح ووظيفته في الحرص على إقامة توازن السفينة وتعديل ميلها ولم يتجاوزوا إطار الإبل، فيقول المثقب في تشبيه نفسه وهو يقود ناقته بالصراري . أي الملاح الحريص على أداء تلك المهمة : (طويل)

كأنّي وأقْتادي على حَمْشَةِ الشَّوَى
يجُورُ صَراريٌّ بها ويُقيمُها[٦٦]

وقد خرج "يزيد بن خذّاق" من إطار الناقة فحمل الملاحين معنى الخضوع والانقياد والاستسلام لدفع الضرائب انطلاقاً من مفاهيمه البدوية يقول : (طويل)

ألا ابنَ المعَلّى خِلْتَنا وحَسِبْتَنا
صَراريَّ نعطي الماكسينَ مُكُوسَا[٦٧]

واستطاع الأعشى التحرر من إطار الصحراء وضمّن البحر معنى خلقياً فشبه به عطاء الممدوح ليدل على كثرته واستمراريته، يقول مخاطباً أحد ممدوحيه : (متقارب)

أهَوْدَ وأنتَ امرؤٌ ماجدٌ
وبحرُكَ في الناس يعلو البحورا[٦٨]

تنعكس في شعر الأعشى أصداء ظاهرة من الظواهر البحرية الهامة ذات البعد الحضاري اشتهر بها الخليج منذ القدم وهي ظاهرة الغوص على اللؤلؤ . فقد تناول في إحدى قصائده أبعاد هذه العملية . فصور جمال صاحبته باللؤلؤة وإشراقها ووصف استعدادات الغوص وما يتعرض له الغواص من معاناة وأخطار، وما يساور نفسه من آلام وآمال كما ضمَّنها جوانب أسطورية تتمثل في الاعتقاد بحراسة الجن للؤلؤ، وصاغ الموضوع في سياق قصصي طريف فيه الكثير من الظلال الواقعية، وجعل مطلعها قوله : (بسيط)

كأنها دُرَّةٌ زهراءُ أخرجها
غواص دارين يخشى دونَها الغرقا[٦٩]

وقد برزت أصداء هذه العملية لدى شعراء آخرين[٧٠] .

أما اللؤلؤ فقد تجلى كعنصر حضاري في صورتين : فذكر كحلية تتزين بها المرأة[٧١] . كما ظهر كمادة واصفة في

سياقات عديدة . وعرض في حالة تحدّره من خيطه وانفراط سلكه حيث شبهت به الدموع[72] . كما ماثلوا به القطيع الفارّ في حالة تشتته[73] . أما بياضه ونقاء لونه فضارعوا به لون المرأة[74] .

عناصر الحضارة المادية الخاصة بالإنسان ومتعلقاته

تتمثل في شعر البحرين صورة الإنسان المستقر الذي أخذ من أساليب الحضارة بنصيب وافر، فشاعت في حياته صنوف من معطياتها، وألوان من مظاهرها، وسمت حياته بنسق تزاوجت في إطاره عناصر الحضارة والبداوة . وتتعدد معطيات الرفاهية التي زخرت بها حياة البحرين وهي وإن لم تكن خاصة بها إلا أنها بارزة في شعرها ملتصقة بحياة أبنائها . ويمكن تلمسها من خلال العديد من المشاهد والصور ذات العلاقة بالمأكل والمشرب والملبس والمسكن . وقد أتاح لهم وفرة المال حياة راغدة وعيشاً ناعماً واقتناء أدوات الحضارة والاستمتاع بملذات الحياة . ويصف "عمرو بن قميئة" ما ينعم به من صنوف المتع فيقول : (وافر)

وَنَدْمانٍ كريمِ الجَدِّ سَمْحٍ
صَبَحتُ بسُحْرةٍ كأساً سبيًا
فقال لنا ألا هلْ من شِواءٍ
بتعْريضٍ ولم يُكْميهِ عَيَا
فأرسَلْتُ الغُلامَ ولمْ أُلَبِّثْ
إلى خيرِ البَوائِكِ تَوْهَريًا
فظل بَنعمةٍ يُسْعَى عليهَ
وراحَ بها كريماً أجفَلِيًّا[75]

ويتمثل ترف الشاعر في مجلس الشراب والرفاق الكرام والخمرة المجلوبة من بلد بعيد والشواء الطازج من لحم ناقة سمينة حسنة . أما "طرفة" فقد حدد ثلاث متع شدَّته وجعلت لحياته معنى وهي الخمرة والمرأة والفروسية كما يشير إلى مجالس الغناء واللهو[76] .

ويأخذ الاتجاه اللاهي بعداً بارزاً في شعر الأعشى، فقد انغمس في صنوف اللذات من خمر معتق ومجالس غناء ولهو بالمرأة وعب منها حتى الثمالة[77] .

أخذت المرأة نصيبها من الترف والنعيم خاصة ما ناسبها . ووصف المرقش الأكبر حياة صاحبته وما تتقلب فيه من وجوه النعمة والرفاهية فقال : (وافر)

حواليْـــها مهـاً جُمُّ التَّراقِي

وأرامٌ وغِــــزْلانٌ رُقُـــــودٌ

نواعِـمُ لا تُعـالجُ بُؤْسَ عيْشٍ

أوانِسُ لا تُــرَاحُ ولا تَــرُودُ

يرُحْنَ معاً بطـاءِ المشْي بُـدّاً

عليهنَّ المجاسِدُ والبُـرودُ(٧٨)

ويتمثل الترف في اكتناز الأجسام وامتلائها وفي ملاحة الوجوه التي كنّى عنها بالحيوانات ذات البعد الجمالي، كما تجسد في رقة العيش والبعد عمّا يشقّ عليها ويرهقـها وفيما تلبسه من لباس .

أدوات الزينة :

يشيع في شعر المنطقة ذكر العديد من المعطيـات الحضارية شيوعـاً واضحاً، وتبرز كوسيلة من وسائل الرفاهية، وهي تتنوع وتأخذ أشكالاً متعددة فمنها :

اللباس :

تجاوز وظيفته كمتطلب يستر الجسم ويحميه من الحر والبرد وأخذ بعداً جمالياً تلوح فيه معاني الحضارة والترف، ويمكن رصد ضروب شتى من الملابس تتنوع من حيث الألوان والأشكال والمادة المصنوعة منها . كما تتعدد المصادر التي تنتجها . وهي تبرز كموصوف مقصود لذاته .

تبرز كذلك كمصدر واصف يصور من خلاله الشعراء العديد من موصوفاتهم . وتتجلى مظاهر الرفاهية والنعمة في الملبس في صور شتى، فقد تظهر في عدد الثياب الملبوسة، حيث يبدو أن علية القوم رجالاً ونساءً اعتادوا لبس ثوبين أو أكثر . يتحسر "عمرو بن قميئة" على شبابه ويتذكر تباهيه وزهوه بثيابه آنذاك فيقول : (منسرح)

وأسحب الريْـطَ والبُرُودَ إلى

أدنَى تِجاري وأنفُضُ اللِّمَمَا(٧٩)

ويعرِّف صاحب اللسان الريطة بأنها ملاءة غير ذات لفقين كلها نسج، وقيل هي كل ثوب رقيق . والبرود هي ثياب مخططة، وكثيراً ما كان يربط الشعراء بين هذين الضربين من الملابس(٨٠) .

وقرنوا أيضاً بين البرود والمجاسد وهي ثياب مصبوغة بالزعفران أو الذي

يلي الجسد . ويصف "طرفة" لباس مغنية حضر مجلس غنائها فيقول : (طويل)

نَدامايَ بِيْضٌ كالنجوم وقيْنَةٌ

تروحُ علينا بين بُرْدٍ ومَجْسَدِ[٨١]

ويبدو مما قاله الشعراء أن البرود لباس أساسي يلبس فوقه ثوب آخر . وقد اعتنى الأعشى بذكر ما تلبسه المرأة المترفة ليدلّ على مكانتها : (خفيف)

خاشعاتٍ يُظهرن أكسِية الخـ

ـزِّ ويُبْطِنَّ دونَها بِشُفوفِ

وحَثَثْنَ الجِمالَ يسْهَكْنَ بالبَـا

غِز والأرجُوانِ خَمْـلَ القطيفِ[٨٢]

فملابسهن الخارجية من الحرير وتحتها ثياب من الشفوف وهو ضرب من القماش رقيق ويحيط بهن ستور من الخز، والثياب الحمراء، وأخرى ذات وبر وهي من القطيفة . وقد يتكون اللباس من ثوب واحد وتكون له خصائص معينة كقول الأعشى يصف ما ترتديه مغنية : (بسيط)

ومُسْتجِيبٍ تَخالُ الصَّنْجَ يُسْمِعُهُ

إذا تُرجِّعُ فيهِ القَيْنةُ الفُضُلُ[٨٣]

فلبس الفضل أو الفضلة يوحي بالابتذال، وربما دل على مخالفة المرأة بين طرفي الثوب على عاتقها حين تتوشح به[٨٤] .

يظهر ترف الملابس أيضاً من خلال المادة المصنوع منها . ويمكن رصد العديد من الأصناف الفاخرة التي كانت شائعة في أسواق البحرين ومنها ما نسج من الديباج وقد أشار إليها "المثقب العبدي" في تغزّله بنساء القبيلة : (وافر)

أرَيْنَ مَحاسِناً وكَنَنَّ أخرى

من الديباجِ والبَشَرِ المصونِ[٨٥]

والديباج ثياب متخذة من الابريسم وهو أحسن الحرير وتكثر إشارات "الأعشى" إلى ملابس الخزّ فيقول في وصف ما تتمتع به النساء من ترف ونعيم : (بسيط)

والساحباتُ ذيول الخزِّ آونَةً

والرافِلاتُ على أعْجازها العِجَلُ[٨٦]

ويمثل طول الثياب وفضولها مظهراً من مظاهر النعمة . ويشير "يزيد بن خذّاق" إلى الملابس المسماة بالسندس وهي الخضراء المنسوجة من الديباج فيتخيل أن ناقته قد ارتدتها : (طويل)

وداويتُها حتّى شَـتَتْ حبشيةً
كأن عليها سُندساً وسَدُوسَا(٨٧)

وقـد جسـدت الصـورة إعجـاب الشاعر بها ومـا تحظـى بـه مـن عنايـة وتدليـل . ويشـير "الأعشـى" إلـى "الرازقي" الذي يتجلى جماله فـي أنـه ثـوب أبيـض مـن الكتـان مخطـط فـي موضع العضض، واتخذه صـورة واصفـة شبّه بها الصحراء حين غطاها السراب: (طويل)

وبيْـداءَ تِيْـهٍ يلعبُ الآلُ فوقهَـا
إذا ما جرَى كالرَّازقيِّ المعَضَّـدِ(٨٨)

كمـا بـرزت نفاسـة الملابـس مـن خـلال المصـدر الصـانع لـهـا ويشـير المؤرخون إلى شهرة اليمن البعيـدة فـي هذا المجال، وجودة صناعتها(٨٩) . ومما نسـب لليمـن مـن ملابـس "الريـدة" و"السحول" وهما قريتان لهما صيت في صناعة الثياب، يشبه "طرفة" أطلال الحبيبة وما تبقـى مـن آثارهـا بالرسوم التي تزخرف تلك الثياب : (طويل)

وبالسفح آياتٌ كأن رسومهـا
يمانٍ وشَتْهُ رِيْدةٌ وسَحُـولُ(٩٠)

ويشير المرقش الأكبر إلـى الملابـس الميسنانية وهي المنسوبة إلى "ميسـان" كورة بالعراق، ويبدو أنـها طويلـة فـاخرة فيقول واصفاً تبختر صاحبته : (طويل)

وأقبلَتْ كالمُجتـاز أدّى رسـالةً
وقامتْ تجرُّ الميسـنانيَّ والبُرْدا(٩١)

وذكـر الأعشـى بـرود السـدير وهـي ثياب مخططة تنسب للسدير أرض باليمن واختارها لتكـون صـورة واصفـة للصحـراء الجرداء التي تتموج فيها الرمال . يقول : (متقارب)

وبيْداءَ قفْر كبُرْدِ السَـديرْ
مشاربُها داثِراتٌ أُجُـنْ(٩٢)

وأشـار "ابـن قميئـة" إلـى الثيـاب "الرهاويات" المنسـوبة إلـى الرهـا، بيـن الموصل والشام .

ويذكر صاحب اللسان أن الرهو ثوب أو خمار يتميز بالرقة(٩٣) .

ليـس مـن شـأننا استقصاء صنـوف الألبسـة عنـد شـعراء البحريـن فـهذا أمـر يطـول شرحه، وحسـبنا أن نشير إلـى أسمائها التي ذكروها فـهناك "النصـع"، وهو ثوب شديد البياض(٩٤)، و"الخميصة" وهي كساء أسود مربع مخطط بخطين(٩٥)، والبرجد وهو ثوب مخطط(٩٦).

الحلي :

مظهر آخر من مظاهر الزينة والرفاهية تتعدد صنوفها، وأكثرها يتعلق بالمرأة، يعدد "المرقش الأصغر" ما تتحلى به نساء القبيلة فيقول :

تحَلَّيْنَ ياقوتاً وشذْراً وصيغةً
وجَزْعاً ظَفاريًّاً ودراً توائِمـا[٩٧]

ويدل تعديد الشاعر لخمسة أصناف من الحلي على ترف النسوة وشدة بذخهن على أن أبرز أنواع الحلي عند شعراء المنطقة هو اللؤلؤ بلا منازع . يصف "طرفة" ما تتحلى به صاحبته من عقود فيقول : (طويل)

وفي الحيِّ أحْوَى ينفُضُ المَرْدَ شادِنٌ
مُظاهِرُ سِمْطَيْ لُؤلُـؤ وزبرجدِ[٩٨]

كما تزينت المرأة بعقود من الذهب وبأقراط وأساور[٩٩] .

تزيين الهوادج :

عني شعراء شرق الجزيرة العربية - كما هو الشأن عند العرب الآخرين - بتزيين هوادج النساء من الخارج حباً في إظهار الرفاهية ودلالة على النعمة والمكانة . يصف "المرقش الأكبر" الحدوج وزينتها فيقول : (طويل)

تَنَزلن عن دَوْمٍ تَهفُّ مُتُونُـهُ
مُزَيَّنةٌ أكنافُها بالزخـارفِ[١٠٠]

وتجسد الصورة ضخامة الهودج وشدة بريقه وما أحيط به من ألوان ورسوم . ويحدد "المثقب" ما يحف الهوادج من ستور وأقمشة فيقول : (رمل)

قد عَلَتْ من فوقِهـا أنماطُهـا
وعلى الأحْداج رقْمٌ كالشَـقِرْ[١٠١]

فهي مغطاة بالأنماط وهي الثياب الملونة الخاصة بالهوادج ومحاطة بالرقوم وهي خزٌّ موشًّى أو ضرب مخطط مزخرف أحمر يشبه لونه حمرة الدم، كما ذكروا في هذا الإطار العبقرية والنجود[١٠٢] .

وكشفوا في أشعارهم عن أنواع من المراكب فأشاروا إلى الرجائز ويقال أنه مركب دون الهودج أو ما زُين به الهودج[١٠٣]، كما ذكروا "المفائم" وهي المراكب الواقية الواسعة[١٠٤] . وفرشوا داخل الهوادج بالطنافس والوسائل[١٠٥] بغرض الراحة وإظهاراً للبذخ والنعمة .

أنواع الطيب :

يعد الطيب مؤشراً حضارياً شاع استعماله في حياة العرب رجالاً ونساءً، وأشار إليه شعراء البحرين كعنصر دال على الترف والنعيم، وذكروه كمادة تطيّب بها الملابس والبيوت . يقول "طرفة" في الفخر بقومه : (رمل)

ثم راحوا عبقُ المِسْكِ بهمْ
يُلحفون الأرضَ هُدّابَ الأُزُر[١٠٦]

ويتمثل بذخهم في تلك الرائحة الطيبة التي تفوح منهم وفي الملابس الطويلة التي يسحبون ذيولها، واستعمل الطيب لتطييب المساكن . ومما أثار أسى "الأعشى" مهاجمة البيوت التي تعبق بالمسك وفوح أرجها عند الهجوم : (مجزوء الكامل)

بادَ العتادُ وفاحَ ريـ
ـحُ المِسْكِ إذ هُجِمَتْ قِبابُه[١٠٧]

ويدل انتشار الرائحة على كثرة ما يقتني أصحاب ذلك المنزل من طيوب .

وارتبطت به المرأة فكان مما توصف به . فيقول "الأعشى" : (بسيط)

إذا تقومُ يضُوعُ المسكُ أصْورَةً
والزنبقُ الوردُ من أردانها شَمِلُ

ويبالغ الشاعر في وصف عبقها فيجعل عبيرها يفوق في فوحه عطر الروضة المعشبة[١٠٨] ويشير "الأعشى" إلى بعض الممارسات في استعمال العطور فيشير إلى تطييب المرأة شعرها به، ويذكر عادة طلاء الجسم بالمسك والزعفران[١٠٩] كما عرض الشعراء لأدوات البخور وأوقات استعماله[١١٠].

وقد وردت العطور في الشعر كصورة واصفة استعارها الشعراء لبعض معانيهم للدلالة على الرائحة الزكية . يقول "طرفة" في تشبيه عبق ثغر صاحبته برائحة المسك : (رمل)

وإذا تضحكُ تبدي حَبَبَاً
كرضابِ المسْكِ بالماءِ الخَصِر[١١١]

واستعار "الأعشى" عبق العطور وجعله صورة واصفة للخمرة : (طويل)

لها أرجٌ في البيت عالٍ كأنما
ألمَّ به من تجر دارينَ أركُبُ[١١٢]

ويشير البيت إلى شهرة دارين بالعطور وإلى جودته ونفاذ رائحته . ومما يلاحظ أن الشعراء يذكرون المسك للإشارة إلى العطور والبخور .

المنشآت العمرانية :

تمثل المنشآت العمرانية مظهراً من مظاهر الرقي واكب ما وجد في المنطقة من مؤشرات التحضر وهو عنصر أوجدته حياة الاستقرار . وتبرز العديد من المنشآت وهي تبدو عامة دون تحديد حيناً، وتحدد بذكر أسمائها وأنواعها حيناً آخر .

ومن أبنية البحرين التي نالت شهرة وكان لها صداها في الشعر حصن المشقّر، ويقال إنه قصر بناه أحد ملوك كندة[١١٣] . وأشار "طرفة" إلى قوته وصلابته في مجال إظهار عجز الإنسان عن رد المنايا : (كامل)

ولئن بنيتُ إلى المشقّر في
هَضْبٍ تُقَصِّر دونهُ العُصْمُ
لتنقبنْ عنّي المنيةُ إنّ
الله ليسَ لحكمه حكمُ[١١٤]

فقوة هذا البناء لا تحول دون المنية . وذكر "طرفة" هذا الحصن عدة مرات، وقرنه حيناً بالصفا، وهو حصن آخر من حصون البحرين وهما يقعان في هجر، وكذلك ذُكرا مقرونين عند امرئ القيس[١١٥] .

أشار المتلمس إلى حصن "الجون" ويقال إنه من بناء طسم وجديس ويقع في اليمامة بالقرب من البحرين، وضرب به المثل في القوة والمنعة ورد الأعداء : (طويل)

ألمْ ترَ أنَّ الجَوْنَ أصبح راسياً
تُطيفُ به الأيامُ ما يتأيَّسُ
عصى تُبَّعاً أيامَ أهلكتِ القُرَى
يُطانُ على صُمِّ الصَّفيح ويُكلَسُ

والبيت يتضمن إشارات تاريخية كما يحدد المواد التي بني بها، ثم استعملت لصيانته[١١٦] . وذكر "أبو داود الإيادي" قصور سماهيج، وهي مما يقع في جزيرة أوال فشبه الإبل بها في ضخامتها في قوله : (خفيف)

وإذا أعرضتْ تقولُ قُصُورٌ
من سَمَاهيجَ فوقها آطامُ[١١٧]

وينم تشبيهها بالقصور التي تعلوها الآطام وهي من المشاهد غير المألوفة عن

رغبة الشاعر في إبراز ضخامتها وشدة ارتفاعها .

يرد ذكر الأبنية بدلالات لغوية عديدة ودون تخصيص ومنها "الفدن" وهو القصر المشيد . واستعمله "المثقب" صفة شبه بها ناقته فقال : (سريع)

يُنبي تَجاليدي وأقتادَها

ناوٍ كرأس الفدَنِ المُؤْيَدِ[١١٨]

وذكر "طرفة" قنطرة الرومي وهي بناء محكم، ونسبه للروم لمهارتهم في البناء وشدة إحكامهم فيه يقول في وصف ناقته : (طويل)

كقنطرَةِ الرُّوميِّ أقسمَ ربُّها

لتكتنفنْ حتَّى تُشَادَ بقَرمَدِ[١١٩]

كما استعار بابي القصر المصقول الجدران ليشبه به فخذيها[١٢٠] . وقد أشار "الأعشى" إلى الكثير من الأبنية والقصور، وذكر المواد المستخدمة في إنشائها[١٢١] .

هكذا تجاوبت أصداء الحضارة في الشعر ة تآلفت مع الواقع فأبرزته ورددت ما يعج به من مظاهر التحضر وأدواته . ولا غرو فالشعر هو المرآة التي تعكس الحياة بمختلف أبعادها وزواياها .

الرقي العقلي [الحضارة المعنوية]

أغنت الظروف التي عاشتها المنطقة تجارب الشعراء وصقلت عقولهم ووجدانهم . فالمعاناة التي تعرضوا لها بسبب استبداد المناذرة وسياسة القمع أكسبتهم عمقاً في النظر وبعداً في الرؤى كما أن احتكاكهم بثقافات مختلفة رفدت تجاربهم وأثرتها، وكان لعامل الاستقرار أثره في تأصيل دور الخطاب الشعري ووضع دعائم للتوجه العقلي الذي اتسم بنزعة إنسانية لامس فيه الشعراء العديد من قضايا الحياة ذات النزعة الفلسفية في صورتها الساذجة، ويمكن تلمس ذلك في العديد من الطروحات الفكرية نذكر منها :

الميل إلى تفصيل المعاني واستقصائها وهو يأتي على صورتين :

أ - تتبع جزئيات الموضوع بشكل متجاور وفي إطاره تتدافع المعاني نتيجة التداعي النفسي أو التأمل دون الاعتماد على التسلسل المنطقي المحكم، كما هو

الشأن في وصف الناقة في معلّقة "طرفة" . فالشاعر يوغل في وصف أعضاء جسم الناقة بشكل شمولي ولهذا لا تختل الأبيات لو قدمنا بعضها على بعض(١٢٢) . وقد أدى التفصيل دور التحليل، وشكّل مرحلة سابقة هيأت الطريق . كما أن موضوع الخمرة من الموضوعات التي تناولها شعراء المنطقة واستقصوا معانيها . ويعدُّ "الأعشى" من الشعراء المبرزين في هذا الميدان فقد أحاط بكل أبعاد هذا الغرض فتحدث عن رحلته في طلبها ووصف لونها ورائحتها وأثرها ومجلسها وأوقات شربها، كما تحدث عن الخمّار والساقي والآنية، ونقل ما دار بينه وبين تجارها من محاورات، ولم ينس ذكر النديم والبلد الذي تنتسب إليه وهو يقرن في هذا الصدد بأبي نواس شاعر الخمرة الشهير في العصر العباسي(١٢٣) .

ب - تفصيل المعاني بشكل متسلسل ونلحظ جذوره في الشعر التاريخي الذي تجاوز مجرد الإشارة العابرة إلى صياغة بعض أحداث التاريخ العربي التي صاغها صياغة فنية يظهر فيها عنصر السرد والحوار ولو بشكل محدود . وتشير الدراسات إلى شعراء المنطقة من أصحاب الحس التاريخي فيذكرون عدي بن زيد الذي تناول قصة الزباء واعتنى بالإخراج الفني و"المسيب بن علس" الذي عرض لقصة سامة واستغل روعة الحوار ودقة السرد الواقعي . كما أشاروا إلى النزعة التاريخية في شعر "الأعشى"(١٢٤) وهي تنتشر بشكل واضح . وبتتبعنا لها نجد عنده لونين من الشعر المتسلسل، لوناً يصطبغ بصبغة تاريخية خالصة صاغ فيها أحداثاً كقصة السموءل، وذكر فيها الحادث في ستة عشر بيتاً ضمن قصيدة مدح واعتمد فيه منحًى فنياً حيث أورده في سياق قصصي طريف، بناه على أساس تسلسل الحدث التاريخي وضمنه العديد من المقومات الفنية وإن كانت بصورة عفوية . وقد شكل عنصرا السرد والحوار فيه ركائز عرض من خلالها الأحداث . ومن المقاطع التي ائتلف فيها السرد والحوار وتعاضدا على تصوير دواخل النفس في الشخصيتين الرئيسيتين، شخصية السموءل وشخصية الحارث قوله : (بسيط)

إذ سَامَهُ خطتيْ خسفٍ فقال له :
مهما تقلْه فإني سامعٌ حار

فقال ثُكلٌ وغدرٌ أنت بينهما
فاخترْ وما فيهما حظٌ لمختار
فشكَّ غيرَ قليلٍ ثم قال له
إذْبَحْ هدِيَّكَ إني مانعٌ جاري
إن له خَلَفاً إن كنتَ قاتلهُ
وإن قتلت كريماً غير عُوَّار[١٢٥]

وقد اتسم العرض بالنبض والحيوية نتيجة التمازج بين الأسلوب الخبري والإنشائي . وبرصدنا لهذا اللون من شعر الأعشى نراه قد نما وتدرج وأفضى إلى لون فني يحمل الكثير من ملامح الشعر القصصي المبني على الواقع الممزوج بالخيال . وتطالعنا قصيدة طريفة قيلت في المديح وتضمنت مغامرة عاطفية جعل الشاعر نفسه وحصانه بطلين فيها وقص خلالها مغامرة عاطفية، هيأها بمقدمة، وحدد زمانها ومكانها، واختار لها وزناً شعرياً قصيراً مطرباً هو مجزوء الكامل يقول :

ولقد طرقتُ الحيَّ بعـ
ـد النومِ تنْبَحُني كِلابُهْ
بمشذَّبٍ كالجذعِ صا
لَ على تَرائِبِهِ خِضابُهْ

واعتمد على الوصف الدقيق للمواقف وعلى عنصر المفاجأة في نمو الأحداث فقال :

ولقد أطفْتُ بحاضر
حتى إذا عَسَلَتْ ذئابُهْ
وصَغا قُميْرٌ كان يمـ
ـنعُ بعضَ بغْيَةٍ ارْتِقابُهْ
أقبلتُ أمشي مِشْيَةَ الـ
ـحشْيان مُزْوَرّاً جِنابُهْ
وإذا غزالٌ أحْوَرُ الـ
ـعيْنين يُعجِبُني لِعابُهْ
حسنٌ مُقَلَّدَ حَلْيِهِ
والنحرُ طيِّبَةٌ مَلابُهْ
غَرَّاءَ تُبْهِجُ زَوْلَهُ
والكفُّ زَيَّنَها خِضابُهْ[١٢٦]

وقد أضفى الوصف الدقيق حيوية وتدفقاً عوض عن غياب الحوار، وانتهى الموقف بإعلان الشاعر أن المغامرة التي ساقها هي ضرب من الخيال، ولو أن تلك المرأة حقيقة في حياته لخاض إليها الغمرات وتحمل الأهوال . ولهذه الأطروحة القصصية أشباه في ديوانه[١٢٧].

وعلى أية حال فقد شكل تفصيل المعاني بصورتيه التجاورية والتسلسلية رقياً عقلياً ومنطلقاً نما من خلاله الشعر وتطور، وآتى ثماره في تلك الوحدة الموضوعية التي تميزت بها بعض القصائد الجاهلية .

التأمل في الحياة :

في فضاء الشعر البحريني نما حس إنساني يهتدي بالعقل ويسترشد بالتفكير والتأمل، ويعتمد على الملاحظة الدقيقة والتجربة الصادقة لتقرير حقائق هذا الكون . كما زخر هذا الشعر بنبض إنساني يحتفي فيه الشاعر بالعواطف والقيم الخلقية . ولا يمكن أن تتبلور هذه المفاهيم السامية إلا في بيئة راقية بلغت قدراً غير قليل من الوعي الفكري والنضج العاطفي .

وقد كان لشعراء البحرين نظرات ثاقبة اخترقوا بها كثيراً من حجب الحياة، وسبقوا فيها غيرهم مكونين لأنفسهم رصيداً معرفياً لا يخلو من فلسفة رغم ما فيه من تلقائية . مهيئين تلك المعاني ليتوسع فيها من جاء بعدهم من الشعراء ويضيفوا إليها .

ومن المعاني التي تأملوها وسجلوا رؤاهم حولها، قصر الحياة وسرعة انطفاء بريقها، يقول عمرو بن قميئة : (وافر)

وما عيْشُ الفتى في الناس إلاَّ
كما أشعلْتَ في رِيْحٍ شِهابَا
فيسطعُ تارةً حَسَناً سَنَاهُ
ذكِيَّ اللونِ ثم يصيرُ هابا[١٢٨]

فسرعة إيقاع الحياة وسرعة تقضِّيها يضارع النار المشتعلة في وسط تكتنفه الرياح، لا يلبث أن يخبو أوارها، ونظراً لامتداد العمر بهذا الشاعر وإدراكه سن التسعين وتقلبه في أحوال شتّى صاغ انطباعاته عن الحياة متأسياً متحسراً على أيام الصحة والشباب ومن قضى من أهله، يقول : (متقارب)

كَبِرْتُ وفارقني الأقربونَ
وأيقَنَتِ النفسُ أنْ لا خُلودَا
وبَانَ الأحبةُ حتى فنوا
ولم يتركِ الدهرُ منهم عَمِيداً
فيا دَهْرُ قَدْكَ فأسْجِحْ بنا
فلسنا بصخْرٍ ولسْنا حديدَا[١٢٩]

فخطاب الشاعر للدهر يجسد الإحساس باللوعة والأسى بسبب محن الحياة ورزاياها، ونتيجة لما عاناه من عجز الكبر وضعفه بكى الشباب وتأسَّف

على زواله وما كان ينعم بـه مـن صحـة وقوة : (منسرح)

يا لهَفَ نفسي على الشبابِ ولمْ
أفْقِـد به إذ فقدتُـــهُ أمَمَـــا[١٣٠]

قد كنتُ في ميْعَـــةٍ أُسَـــرُّ بهـا
أمنَـعُ ضيْمي وأهبِـطُ العُصُمَـا

وبهذا القـول وضـع "ابـن قميئـة" ركائزْ موضوع كبير تناوله الشـعراء فيما بعد متوسعين فـي معانيـه . والأسـلوب الإنشائي يجسد التدفق الشعوري والألـم الذي زخرت به نفس الشاعر . ونتيجة لعمق إحساسه بالموقف عبر عما يحـس بـه المسـن (المعمـر) مـن عـدم جـدوى الحيـاة الطويلـة التـي ينشـدها النـاس فخاطبهم في نفس الأبيات :

لا تغبِطِ المرءَ أن يُقالَ لهُ
أمْسَى فلانٌ لِعُمرِهِ حَكَمَا

وقد برز الشيب موضوعاً أصيلاً في شعر البحرين تناوله الكثير من الشـعراء وقـد رد "المثقـب" علـى امرأتـه حيـن سـخرت مـن شـيبه[١٣١] ، وعلـل أن الشباب إن هو إلا ثوب معار سرعان ما يخلـع . أمـا "المرقـش" فقـد هـزأ بالخضاب لعجزه عن رد الشـباب ولما يحمله من زيف[١٣٢] .

تأمل الشعراء الدهر وأدركوا ماله من سطوة وبطـش وقـدرة علـى قـهر الإنسـان والعبث به بالانتقال به من حال إلى حال فقال "ابن قميئة" : (خفيف)

فزعتْ "تُكْتُـمٌ" وقالت عجيبـاً
أن رأتني تَغَيَّـر اليـومَ حالـي

يا ابنةَ الخيْرِ ! إنما نحن رهْنٌ
لِصُـروفِ الأيـامِ بعد الليـالي

جلَّح الدهـرُ وانتحَى لي وقُدْمـاً
كان يُنحي القُوَى على أمثالي[١٣٣]

ويكشف البيت الثاني عـن أسـلوب الشـاعر فـي تعزيـة النفس وخلـق تـوازن يرفدها ويرفع من معنوياتها حتى لا تنهار أمام ضربات القدر الموجعة ، أما المرقـش الأصغر فأبرز مظهراً آخر من مظاهر سطوة الدهر بحرمان المثري من أمواله ، وإنـزال العزيز من عليائه ، وإشقاء صاحب النعم ، وبيّن عجز أولئك عن جبروت الدهر[١٣٤] .

كان طبيعياً أن تؤرقهم فكرة المـوت وتدفعـهم للتـأمل والنظـر . وشـكل هـذا الموضـوع قضيـة حيويـة وهاجسـاً بـالغ الحساسـية وقفـوا منـه موقـف المتسـائل الطـامح إلـى سبر حقيقتـه رغـم التسـليم بعجز الإنسان والإيمان بأن الموت نهايـة الحياة . يقول يزيد بن خذّاق : (بسيط)

هل للفتَى من بناتِ الدهر من واق
أم هل له من حِمامِ الموتِ مِنْ راقِ

والاستفهام المكرر مرتين يؤكد إيمان الشاعر بحتمية الموت، وأن لا مفر للإنسان منه . وقد استغرق الشاعر في تصور نفسه ميتاً فوصف الطقوس الجنائزية في دفنه، وعمد إلى خطاب النفس في محاولة منه للتماسك والحد من انهيار الذات :

هوِّن عليك ولا تَوْلَعْ بإشفاق
فإنما مالُنا للواحدِ الباقي(١٣٥)

ويذكر الرواة أن هذه الأبيات هي أول ما قيل في ذم الدنيا . وإذا صح ذلك فإن الشاعر وضع دعائم موضوع شعري استثمره الشعراء بعده مفتقين جوانبه .

ويبدو "طرفة بن العبد" - رغم قصر حياته - شاعراً أصيلاً . وتدل تأملاته في الموت على بصيرة نافذة ورؤية دقيقة شفافة(١٣٦) .

عمد الشعراء إزاء حادث الموت والشعور بالعجز واليأس أمامه إلى إيجاد معادل موضعي يخففون من خلاله من الإحساس بالخيبة والإحباط ويلتمسون للنفس ما يسليها ويعزيها، فذكروا أن المنية قدر محتوم يشمل كلّ المخلوقات من إنسان وحيوان ونبات، فليس الإنسان أو الشاعر هو المخصوص بالفجيعة، ويعبر عمرو بن قميئة عن شمولية الموت وإحاطته بكل الموجودات فيقول : (خفيف)

أقْصَدَتني سهامه إذ رأتني
وتولتْ عنه سُلَيْمَى نِبالي
لا عجيبٌ فيما رأيتِ ولكنْ
عجبٌ من تفرُّطِ الآجالِ
تُدركُ التمسَحَ المولَّعَ في اللُّجَـ
ـةِ والعُصْمَ في رؤُوس الجبالِ
والفريدَ المُسَفَّعَ الوجْهِ ذا الجُدَّ
ةِ يختارُ آمناتِ الرمالِ
وتصَدى لِتصْرَعَ البطلَ الأرْ
وَعَ بينَ العلْهاءِ والسِّربالِ(١٣٧)

ويعمد هذا الشاعر المبدع إلى إيجاد معادل آخر يستمد منه شحنات نفسية تعزيه وتمده بالقوة والتماسك، فيلتمس العبرة من الأمم السابقة واضعاً بذلك ركائز الشعر التاريخي : (كامل)

قد كان من غسانَ قبلك أمْـ
ـلاكٌ ومن نصْر ذوُو نِعَمِ
فتتَوَّجوا مُلْكاً لهم هِمَمٌ
ففنُوا فناءَ أوائل الأممِ

لا تحسبنَّ الدهرَ مُخْلِدَكُمْ
أو دائماً لكمُ ولمْ يَدُمِ[١٣٨]

وتعج الأبيات بالقضايا الإنسانية التي تؤرق البشر كقضية الموت الذي ينتهي بالإنسان إلى الفناء والعدم، وقضية الخلود التي تمثل مطمحاً إنسانياً يدفع البشر إلى التماسه والبحث عنه بشتى الوسائل .

نتج عن ميل الشعر إلى تأمل الحياة وسبر أغوارها أن انبعثت الحكمة على ألسنتهم أصيلة عميقة متدفقة . وتفطّن الدارسون المحدثون إلى دور البحرين في هذا المجال ، وهم يرون أن هذا الموضوع احتل حيزاً بارزاً من شعرهم ووجد على نطاق واسع، فلم يبلغ من القوة في مناطق الجزيرة العربية ما بلغه في شرقها[١٣٩] .

وتمتد الحكمة في أشعار البحرين حتى تكوِّن سلاسل متوالية كما هو الحال في بعض قصائد "طرفة" و"المتلمس" و"يزيد بن خذاق" و"الأعشى"، كما تتعدد محاورها وتتنوع معانيها لتشمل الكثير من قضايا الإنسان . يقول المتلمس حاثّاً على الاعتدال في الإنفاق : (وافر)

وأعلمُ علمَ حقٍ غيرَ ظنٍّ
وتقوى اللهِ من خيرِ العتادِ
لحِفْظُ المالِ أيسرُ مِنْ بُغاهُ
وسيرٌ في البلادِ بغيرِ زادِ
وإصلاحُ القليلِ يزيدُ فيْهِ
ولا يبقَى الكثيرُ مع الفسادِ[١٤٠]

واستطاع الشاعر استخلاص مبدأ عام من خلال موقف خاص، منتقلاً بالقضية من مجالها الضيق إلى آفاق إنسانية أرحب وفي ذلك ما فيه من رقي فكري .

ويجنح المرقش الأصغر إلى بسط مجموعة من الحكم في إطار قصيدة غزلية كيّفها لتتناسب مع الموضوع فقال : (طويل)

فمن يلقَ خيراً يحمدُ الناسُ أمرَهُ
ومن يغْوِ لا يعدَمْ على الغيِّ لائمَا
ألم ترَ أن المرءَ يجْذِمُ كفَّهُ
ويجشَمُ من لومِ الصديقِ المَجاشِما[١٤١]
أمِن حلمٍ أصبحْتَ تنْكُتُ واجماً
وقد تعْتَري الأحلامُ من كان نائمَا

ويمثل قول الشاعر "ألم تر" المصدر الذي يعتمد عليه في استقاء حكمته وهي وقائع الحياة عامة، وتجاربه الخاصة مع

بصر نافذ يخترق الحجب . والحكمة كثيرة عند شعراء البحرين وليس من شأننا تتبعها ولكننا أردنا الإشارة فقط إلى بعض مواضعها[١٤٢] .

لقد تحولت الحكمة إلى خطاب وعظي وتوجهات خلقية كمقطوعة "طرفة" التي استغرقت عشرة أبيات ساق خلالها العديد من المواعظ كقوله : (متقارب)

وإنْ بابُ أمرٍ عليكَ الْتوَى
فشاوِرْ لبيباً ولا تَعصِهِ
وذو الحقِّ لا تنتقصْ حقهُ
فإنَّ القطيعةَ في نقْصِهِ[١٤٣]

المنهج الأخلاقي:

أدت تجارب الشعراء وتأملاتهم في الحياة إلى محاولة بناء علاقات إنسانية متينة تمكن الفرد من الانتصار على إحباطاته، وما يتعرض له من سلبيات . فيخاطب "المثقب" صاحبه أو ملك الحيرة حاثاً إياه على جعل الصدق والصراحة ونبذ الزيف أساساً في بناء العلاقة القائمة بينهما : (وافر)

فإما أن تكون أخي بحقٍّ
فأعرف منك غثِّي من سميني[١٤٤]
وإلا فاطَّرِحْني واتخِذني
عدواًّ أتقيك وتتقيني

والقصيدة تفيض بالقيم والسجايا الحميدة التي تمثل دستوراً أخلاقياً مقتبساً من منظومة الأخلاق العربية . ومما أوضح رؤية الشاعر وفلسفته العفوية لمفهومي الخير والشر قوله :

وما أدري إذا يمَّمتُ وجهاً
أريدُ الخيرَ أيُّهُما يليني
أألخَيْرُ الذي أنا أبتغيهِ
أم الشرُّ الذي هوَ يبتغيني

وتسيطر على الشاعر نزعة إنسانية تتمثل في شغف البشر بكشف الغيب واختراق المجهول بدافع درء الشرور والأخطار وبناء حياة أكثر استقراراً :

دَعي ماذا علمتُ سأتقيهِ
ولكنْ بالمُغَيَّبِ نبِّئيني

وشعر البحرين، كما هو شأن الشعر العربي يعبق بتمجيد الخير والتغني بالفضائل كالكرم والشجاعة والعفة في

نظرة ترى أن ممارسة الفضيلة انتصار على شرور الحياة وتخليص لها مما يفسدها ويعكر صفوها، ولعمرى فهذا أعلى درجات الرقي .

هكذا شكل المضمون العقلي رافداً أخصب الشعر، وأثرى رؤية الشعراء، وواكب التحضر المادي بحيث ائتلف اللونان على تجسيد ما بلغته منطقة البحرين من تحضر .

د. أنيسة أحمد خليل المنصور
أستاذ الأدب القديم والوسيط المساعد
كلية الآداب - جامعة البحرين

الهوامش

١ – مجلة الوثيقة ١٠٦/٦ ويراجع أيضاً العدد ١٧/٩ .

٢ – الوثيقة ٢٨/٧ .

٣ – جواد علي – المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥٦٩/١ والوثيقة ١١٢/١٠ و١١٣ .

٤ – الوثيقة ١٤٤/٢ .

٥ – جواد علي – السابق ١٦/٢ و٢٧٥/١٧ .

٦ – ياقوت الحموي – معجم البلدان ٤٣٢/٢ . وحمد الجاسر، المعجم الجغرافي ج٢ "دارين" .

٧ – جواد علي – السابق ٦٥٠/٨ .

٨ – جواد علي – السابق ٢٥١/٧ .

٩ – الوثيقة ١٣١/٧ وبعدها .

١٠ – السابق .

١١ – تراجع مادة "عدل" ١٧٢/٣ .

١٢ – المسالك والممالك ٣٧٠/١ و٣٧١ .

١٣ – ياقوت الحموي – معجم البلدان ٣٤٧/١ .

١٤ – يراجع في ذلك محمد بن حبيب – المحبّر ص ٢٦٥ وبعدها . والمرزوقي، الأزمنة والأمكنة ١٦١/٢ وما بعدها . ومحمد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود ص ٧١ .

١٥ – يراجع مقالة د. إحسان عباس "دور شرق الجزيرة العربية في الشعر الجاهلي" ص ١ و٢ . ومجلة الوثيقة ٥٧/٧ وبعدها .

١٦ – المسالك والممالك ٣٧١/١ .

١٧ – تراجع مادة "هجر" في لسان العرب .

١٨ – إحسان عباس – السابق ص ٩ وجواد على المفصل ١٩٨/٣ .

١٩ – المفضل الضبي – المفضليات – المفضلية ٧٨ .

٢٠ - يراجع ديوان طرفة ص ٣٨ . وديوان المتلمس ص ٤٣ القصيدة (٢) وص ١٣١ القصيدة (٦) وص ٢٣٦ القصيدة (١٥) . وتراجع معلقة عمرو بن كلثوم عند الزوزني في شرح المعلقات السبع ص ١١٨ وبعدها وهي إفراز للصراع الدائر بين المناذرة وعرب الجزيرة . وقالها الشاعر في هجاء عمرو بن هند بعد أن قتله كما يذكر المؤرخون . تراجع القصة عند جواد علي - المفصل ٢٥٥/٣ .

٢١ - يراجع عما حظي به أشراف العرب من وظائف ومنح في المفصل ٢٦٤/٥ وبعدها وص ٢٨٣ وبعدها . وفي مقالة إحسان عباس ص ٩ .

٢٢ - المفصل ٤٢٨/٩ .

٢٣ - السابق ٢٥٢/٩ .

٢٤ - السابق ٢٤٢/٣ .

٢٥ - طبقات فحول الشعراء ٨٦/١ .

٢٦ - يراجع ابن رشيق - العمدة ٥٤/١ . والسيوطي - المزهر في علوم اللغة ٤٧٦/٢ دار الفكر - القاهرة .

٢٧ - إحسان عباس - السابق ص ٨ .

٢٨ - الأصفهاني - الأغاني ٧٦/١٨ . والمرزباني معجم الشعراء ص ٢٠٠ . وديوانه ص ١٧ .

٢٩ - معجم الشعراء ٢٠١ . وديوانه ص ٤٠ و٤٨ القصيدة (٤) .

٣٠ - تراجع مقدمة الديوان ص ٤٠ .

٣١ - ديوانه ص ٤١ وص ٣٩ . والحقاق من الإبل = ما كان ابن ثلاث سنين ومن معانيها غلبة الشاعر غيره من الشعراء . تراجع مادة "فحل" في لسان العرب .

٣٢ - ديوانه ص ٢٤ وتراجع النونية في ص ٢٥ .

٣٣ - تراجع المفضلية رقم ٨٠ . وهي تنسب أحياناً للممزق العبدي وهو من شعراء البحرين أيضاً .

٣٤ - ديوانه ص ٢٠ .

٣٥ - ديوانه ص ١٥٤ .

٣٦ - المفضلية رقم ٥٤ . ويراجع أيضاً البيت ٢٩ .

٣٧ - المفضلية رقم ٤٩ .

٣٨ - الديوان الصفحات ٢٠ و٤٠ و٤٧ و٦٠ و٦٧ .

٣٩ - السابق ص ٢٦ . والبرين = حلقة لتزيين الأنف، والدملج = السوار العريض .

٤٠ – الديوان ص ٢٠٩ . والمسمعات = المغنيات، والقاصب = الزامر في عود القصب .

٤١ – السابق ص ٣٢٩ الأبيات ٨ – ١٠ .

٤٢ – السابق ص ٢١٣ والخط هي القطيف .

٤٣ – يراجع الديوان ص ٥٤ . ومعجم البلدان ٣٧٨/٢ .

٤٤ – الديوان ص ٢ . راجع أيضاً ديوان عمرو بن قميئة ص ١٦٣ .

٤٥ – الديوان ص ١٣٠ .

٤٦ – ديوانه ص ١٥٢ . ويراجع أيضاً ديوان عمرو بن قميئة ص ١٦٤ .

٤٧ – يراجع ديوان طرفة ص ٧٠ . ومفضلية المرقش الأكبر رقم ٥٤ البيت الخامس .

٤٨ – ديوانه ص ٥٧ الأبيات من ٤ – ١٠ .

٤٩ – الديوان ص ٢٥٠ تنظر الإحالات .

٥٠ – الديوان ص ١٦١ .

٥١ – الديوان ص ٧٥ . والمجترم = جامع الثمار، الكميت = الفرَس الذي يخالط سواده حمرة، ويردي = يعدو .

٥٢ – المفضلية ٥٥ . والشرب = الضامر، والملوح = الشديد الضمر .

٥٣ – الديوان ص ١٥٥ . النساء = عِرْق يجري في الفخذين، الخصبة = النخلة أو الطلع، ومكمم = مستور.

٥٤ – الديوان ص ٤٥ . وأنافت = اعتلت، والهوادي = الأعناق، والتلع = العنق الطويل .

٥٥ – يراجع على سبيل المثال المفضلية ٤٨ .

٥٦ – ديوان المثقب العبدي ص ١٥٣ .

٥٧ – الديوان ص ٦٠ .

٥٨ – الديوان ص ١٤٨ . بخت = جمال طوال الأعناق، والعراض = المفرط في العرض، وأراد بالأباهر الظهور، والشئون = جمع شأن وهي شعب قبائل الرأس التي تجري منها الدموع إلى العينين .

٥٩ – الديوان ص ١٩ . والنواصف مفردها ناصفة وهي الباحة الواسعة، ودد = موضع .

٦٠ – شرح القصائد التسع المشهورات ٢١١/١ .

٦١ – الديوان ص ١٨٨ . والكور = الرحْل، والنسع = السير الذي تشد به الرحال .

٦٢ – لسان العرب مادة "مهر" .

٦٣ – المفضلية ٤٩ . والرباع = الثور، والمفرد = الوحيد، والزلم = قدح الميسر .

٦٤ – ديوانه ص ١٩ . الحباب = الأمواج، والحيزوم = الصدر .

٦٥ – الديوان ص ١٩٠ . الغوارب = الأمواج، والحدب = ارتفاع الموج، والبطين = الواسع البعيد .

٦٦ – السابق ص ٢٤٧ . الأقتاد = خشب الرحل، والحمشة = الدقة، والشوى = اليدان والرجلان .

٦٧ – المفضلية ٧٩ .

٦٨ – ديوانه ص ١٣٣ . والأعشى من شعراء اليمامة لكنه كان وثيق الصلة بالبحرين وكان ممن يمتار من أسواقها (جواد علي، المفصل ٣٢٩/٧) وما يجعلنا ندرج شعره في دراستنا بروز بيئة البحرين في شعره .

٦٩ – الديوان ص ٤٠٣ . تراجع الأبيات من ٩ – ١٦ .

٧٠ – عرض المسيب بن علس والمخبل السعدي وهما من الشعراء الوثيقي الصلة بالبحرين للعديد من ملابسات عملية الغوص . تراجع قصيدة الأول في شعراء النصرانية للويس شيخو ص ٣٥٦ وإحسان عباس ص ٢٢ وقصيدة الثاني في المفضليات ورقمها ٢١ .

٧١ – يراجع ديوان الأعشى ص ١٣١ البيتان ٢١ و٢٢ وص ٨/٣٥٧ . وديوان المثقب ص ٦٣ .

٧٢ – ديوان الأعشى ص ٨١ البيتان ٣ و٤ .

٧٣ – السابق ص ٧٥ البيت ٤٤ .

٧٤ – السابق ص ٣٩٧ البيت الثامن .

٧٥ – الديوان ص ١٣١ . السبية = الخمرة تنقل من بلدها والبائكة = الناقة الفتية، والتوهري = السنام الطويل، وأجفلي = ذاهب .

٧٦ – تراجع معلقته في ديوانه ص ٢٤ الأبيات من ٤٩ – ٦١ .

٧٧ – تراجع مادة "الخمر" في ديوانه ص ٤٢٤ ومادة "الفتى" ص ٤٢٨ ومادة "القيان" ص ٤٢٩ ومادة "المرأة" ص ٢٩ . وتزودنا هذه المضامين بتصور واضح لما كان يشيع من متع وترف في بيئة البحرين وفي البيئات التي تعامل معها شعراؤها .

٧٨ – المفضلية ٤٦ . وجمّ التراقي = لا حجم لعظامها قد غمرها اللحم، والبد = الكثيرة لحم الفخذين .

٧٩ – ديوانه ص ٥٠ . التجار = جمع تاجر ويريد بائع الخمر، واللمة = الشعر المجاوز شحمة الأذن .

٨٠ – يراجع ديوان المثقب العبدي ص ٨٧ .

٨١ – ديوانه ص ٢٤ ويراجع أيضاً ديوان الأعشى ص ٣٥٩ والمفضلية ٤٦ .

٨٢ – ديوانه ص ٣٤٩ . ويسهكن = يسحقن، والباغزية = ثياب من الخز، والأرجوان = صبغ أحمر ويريد الثياب الحمر، والخمل = الوبر والثوب المخمل .

٨٣ – ديوانه ص ٩٥ وأراد بمستجيب العود = يجيب الصنج ويشاكله، والصنج = دوائر صغار من النحاس يصفق بأحدهما على الأخرى .

٨٤ – يراجع مادة "فضل" في لسان العرب .

٨٥ – ديوانه ص ١٥٨ .

٨٦ – ديوانه ص ٩٥ .

٨٧ – المفضلية ٧٩ . ويراجع في نفس المعنى ديوان المتلمس ص ٢٢٨ وبعدها .

٨٨ – ديوانه ص ٢٢٥ ينظر شرح البيت .

٨٩ – جواد على ، المفصل ٥٢٤/٧ وبعدها وص ٥٩٧ وبعدها .

٩٠ – ديوانه ص ٦٦ . يراجع أيضاً ص ٢٤ .

٩١ – الأصفهاني – الأغاني – ٣٣٠/١١ .

٩٢ – الديوان ص ٥٣ .

٩٣ – الديوان ص ٨٩ . يراجع أيضاً ما يتبعه من إحالات .

٩٤ – تراجع قصيدة المرقش الأكبر المفضلية ٤٩ البيت ١١ .

٩٥ – يراجع ديوان الأعشى ص ١٨٥ البيت ٢ .

٩٦ – ديوان المثقب ص ٣١ وديوان طرفة ص ٢٠ .

٩٧ – المفضلية ٥٦ – الشذر اللؤلؤ أو قطع صغار من الذهب والتوائم اثنتين اثنتين .

٩٨ – الديوان ص ٢٠ ويراجع أيضاً ديوان المثقب ص ٦٣ .

٩٩ – يراجع ديوان المثقب ص ١٥٩ . والمفضلية ٥/٥٠ . وديوان الأعشى ص ٢٣/٣٩ .

١٠٠ – المفضلية ٥٠ . وأراد بالدوم = الإبل، وتهف = تبرق .

١٠١ – ديوانه ص ٦٥ .

١٠٢ – ديوان الأعشى ص ١٦/٣٥٩ والعبقري = الديباج أو البسط الموشاة وقيل الطنافس الثخان، والنجود = ما يزين به البيت من بسط وفرش ووسائد .

١٠٣ – يراجع ديوان المثقب ص ١٥٤ .

١٠٤ – المفضلية ٧/٥٦ .

١٠٥ – ديوان المثقب ص ٢٠٣ .

١٠٦ – الديوان ص ٤٣ .

١٠٧ – الديوان ص ٣٢٧ .

١٠٨ – السابق ص ٩١ . وتراجع أيضاً الأبيات الموالية للبيت المذكور .

١٠٩ – السابق ص ٧/٤٩٧ وص ٢٠/٢٥٥ .

١١٠ – المفضلية ٩/٥٧ و١٠ .

١١١ – الديوان ص ٤١ .

١١٢ – الديوان ص ٢٣٩ .

١١٣ – المفصل ٢٠٤/٤ .

١١٤ – الديوان ص ٦٩ .

١١٥ – الديوان ص ٥٧ .

١١٦ – يراجع الديوان ص ١١٧ وبعدها .

١١٧ – الأصمعيات رقم ٦٥ .

١١٨ – الديوان ص ٢٣ . وينبي = يرفع، والتجاليد = الجسم، والقتد = خشب الرحل، وناو = سمين، والمؤيَدْ = الموثق .

١١٩ – الديوان ص ٢٢ .

١٢٠ – السابق ص ٢١ .

١٢١ – تراجع مادة "القصر" في ديوانه ص ٤٢٩ .

١٢٢ – تراجع في الديوان ص ٢٠ وبعدها الأبيات من ١١ – ٤٠ .

١٢٣ – إحسان عباس السابق ص ١٧ وتراجع مادة الخمر في ديوانه ص ٤٢٤ .

١٢٤ – إحسان عباس السابق ص ١٧ .

١٢٥ – الديوان ص ٢١٥ وبعدها والعوّار = الضعيف الجبان .

١٢٦ – السابق ص ٣٢١ . والمشذّب = الفرس الطويل القليل اللحم، والحاضر = الماء الذي لاينضب، وعسلت = اضطربت، والحشيان = المصاب بالربو .

١٢٧ – يراجع على سبيل المثال القصيدة رقم (٨) ورقم(٣٩) .

١٢٨ – الديوان ص ١٨٧ وحماسة البحتري ص ٨٤ .

١٢٩ – السابقان ص ١٨٨ و١٠٥ .

١٣٠ – الديوان ص ٤٨ . والعصم من الظباء والوعول = ما في ذراعه بياض وسائره أسود أو أحمر .

١٣١ – يراجع الديوان ص ٢٧٤ .

١٣٢ – المفضلية ٥٣ .

١٣٣ – الديوان ص ٦٥ .

١٣٤ – تراجع المفضلية ٥٨ من ١٨ – ٢٢ .

١٣٥ – المفضلية ٨٠ .

١٣٦ – معلقته ص ٢٦ الأبيات ٦٢ – ٦٨ وص ٣٢ وص ٦٩ .

١٣٧ – الديوان ص ٦٦ وأراد بالفريد = الثور .

١٣٨ – الديوان ص ١٨٩ وحماسة البحتري ص ١٢٢ .

١٣٩ – تراجع دراسة إحسان عباس السابقة ص ١٤ و١٥ .

١٤٠ – الديوان ص ١٧٢ .

١٤١ – المفضلية ٥٧ .

١٤٢ – يراجع على سبيل المثال معلقة طرفة في ديوانه ص ١٩ و٣٦ و٥٣ . وديوان المتلمس ص ٢٠٨ . و٣٢٣ وديوان المثقب ص ٢٧٢ و٢٧٣ .

١٤٣ – الديوان ص ٥١ .

١٤٤ – الديوان ص ٢١١ .